مقياس : التواصل الثاقفى بين المشرق والمغرب الإسلامى

محاضرة: الأثر المشرقى فى المغرب الإسلامى

1 – نماذج من العلماء المشارقة الوافدين إلى المغرب وبعض مؤلفاتهم.

2 - دور العلماء المشارقة في تنشيط الحركة الثقافية في المغرب الإسلامي.

أولا: مؤلفات العلماء المشارقة الوافدين بلاد المغارب: تشمل المؤلفات التي كتبت على أرض المغرب بفضل عناية الحكام المغاربة.

لقد حل المشارقة في مدن وعواصم بلاد المغارب، وألف البعض منهم أكبر أعمالهم في المغرب، منها الموجود ومنها المفقود، وتلك المؤلفات تعتبر مشرقية الأصل والمصدر ومغربية المولد، لأن هؤلاء القادمين درسوا العلوم وأخذوا المعارف من العلماء المشارقة في أوطانهم، وأغلب من وُجدت مؤلفاتهم يذكرون شيوخهم المشارقة وعناوين كتبهم في خطب ومقدمات مؤلفاتهم أو ضمن المصنف.

- مؤلفات الطبيب إسحاق بن عمران: ارتبط ذكر اسم هذا الطبيب وشهرة مؤلفاته ببلاد المغرب، وعلى ما يبدو فإن كل كتبه قد وضعها بالقيروان، ذلك لأن المتتبه لمسيرة إسحاق يجد ذكر كل ما تعلق بحياته في المرحلة المغربية فقط، يقول ابن جلجل: "استوطن القيروان حينا، وألف كتبا منها كتابه المعروف بنزهة النفس، وكتابه في داء المالخونيا لم يسبق إلى مثله، وكتاب في الفصد، وكتابه في النبض"[1]، واقتصر ابن جلجل على ذكر تلك العناوين كمثال فقط، بينما لإسحاق عدة مؤلفات نذكرها فيما يلي:

- المنالنخوليا: كتاب موجود ومطبوع[2]، وهو عبارة عن مقالتين في داء المالنخوليا، وهي المرض المعروف بالسوداوية وبمرض الوسواس، ويرد اسم هذا المرض في الكتب العربية على أشكال مختلفة منها مالنخونية، مالنخوليا، ملخونيا، الماليخوليا، وهو الكتاب الوحيد الذي وصل من مؤلفات إسحاق بن عمران[3].

- رسالة في حفظ الصحة وتدبيرها: وهي رسالة قصيرة من إسحاق إلى بعض إخوانه في حفظ الصحة وتدبيرها في ثلاث صفحات ذكرها صاحب العقد الفريد[4].

- العنصر والتمام: وهو مؤلف في المادة الطبية، وألفه برسم زيادة الله الثالث الأغلبي وهو مفقود.

- كتاب في الفصد: مصنف في المادة الطبية وأشار إليه حاجي خليفة وهو مفقود.

- كتاب في النبض: مؤلف طبي مفقود، ذكره حاجي خليفة في ترجمته[1].

- كتاب نزهة النفس: مصنف مفقود، سماه حاجي خليفة "نزهة النفس في الطب"[2]، وقال في موقع آخر: "كتاب النفس- لأرسطو[3]، وهو على ثلاث مقالات نقله حنين إلى السرياني تماماً، ونقل إسحاق منه شيئاً يسيراً، ثم نقله ثانياً وأجاد فيه، وشرح تامسطيوس[4] هذا الكتاب بأسره ...، ونقل إسحاق ما حرره تامسطيوس إلى العربية من نسخة رديئة، ثم أصلحه بالمقابلة مع نسخة جيدة"[5]، وبذلك لا يُعرف إن كان من تأليف إسحاق أو نقْل لكتاب أرسطو مع إضافات وشرح.

- مقالة في نوادر الطب ولطائف الحكمة.

ومن أسماء المؤلفات الأخرى المفقودة التي أوردها له حاجي خليفة في كشف الظنون:

- الأدوية المفردة: يقول حاجي خليفة: "جمعها جمع من الأطباء قديماً وحديثاً منهم...إسحاق بن عمران البغدادي الطبيب"[6].

- كتاب في البول من كلام أبقراط[7].

- أقاويل جالينوس[8] في الشراب.

- كتاب في بياض المدة ورسوب البول وبياض المني.

- مسائل مجموعة في الشراب.

- مقالة في الإبانة عن أشياء يقال إنها تشفي الأسقام.

- مقالة في الإستسقاء.

- مقالة في علاج القولنج[1].

- مؤلفات الطبيب إسحاق بن سليمان الإسرائيلي: كان كحالة في بدايته، وقد تتلمذ في علمي الطب والفلسفة على يد إسحاق بن عمران، ثم خدم عبيد الله الشيعي، وألف كتبه الطبية والفلسفية قد وضعها بالمغرب التي لم يرحل عنها لغيرها بعدما استوطنها حيث كانت وفاته بها، ومن مؤلفاته:

- كتاب في البول: مؤلف في المادة الطبية، يوجد بدار الكتب الوطنية بتونس مخطوطا في نسختين[2]: نسخة مخطوطة بخط مغربي، ونسخة مصورة عن مخطوطة بمكتبة الفاتيكان، الأولى معنونة بكتاب البول، والثانية كتاب معرفة البول، وهو "كتاب مجموع من أقاويل الأوائل في معرفة البول وأقسامه ودلائله ما عني بجمعه وتأليفه إسحاق بن سليمان الإسرائيلي المتطبب وصيره عشرة أبواب"[3]، قال ابن جلجل: "وله تواليف لم يسبقه أحد إلى مثل بعضها، ككتابه في البول فإنه أشبع كتاب ألفه مؤلف، بذ فيه جميع المتقدمين"[4]، وقد ذكره حاجي خليفة أيضاً[5].

- كتاب الحميات: مؤلف في المادة الطبية موجود، قال ابن جلجل: "وقيل له: أيسرك أن لك ولداً؟- أي إسحاق- قال: أمَّا لما صار لي كتاب الحميات أكثر فلا؛ يعني أن بقاء ذكره بكتاب الحميات، أكثر من بقاء ذكره بالولد"[6]، وقال صاحب كشف الظنون: "كتاب الحميات أجود ما صنف فيه"، وأضاف قائلا: "وهي خمس مقالات، ولم يوجد في هذا الفن مثله، اختصره موفق الدين البغدادي"[7]، وبذلك أخذه عليه المشارقة واختصروه.

- الأغذية والأدوية: مصنف موجود في المادة الطبية، يفتتحه صاحبه بالتنويه إلى أهمية الغذاء بالنسة للصحة "قال إسحاق بن سليمان: إنّ السبب الذي دعا الأوائل إلى الكلام في طبائع الأغذية هو أنّهم لمّا عُنُوا بالبحث عن الصّحة وأسبابها، والأمور الدّاعية إلى حفظها، وجدوا

الأبـدان مضـطرّة إلـى أمـرين: أحَـدُهما: إعطاؤهـا مـن الغـذاء مـا يُصـلحها ممّـا بـه قوّتهـا وقوامها....والآخرُ: نفْيُ ما يجتمع في الأبدان من قسم الغذاء المخالف لمزاجها"[1].

- مدخل إلى صناعة الطب: ورد بعنوان "المدخل في الطب"، وذكره حاجي خليفة.

- كتاب النبض: اختصره الفيلسوف موفق الدين البغدادي.

- كتاب الأوائل والأقاويل: وذكره حاجي خليفة.

- كتاب في الترياق: ورد في كشف الظنون.

- كتاب دليل الأطباء.

- كتاب الإسطقسات: ويقال أيضا الإستقسات، وأشار إليه حاجي خليفة [2] دون شرح.

في الحكمة والفلسفة والمنطق:

- بستان الحكمة: مصنف في الفلسفة، وقيل بستان الحكمة أوبستان الحكيم، وفيه مسائل من العلم الإلهي.

- كتاب في الحدود: في الفلسفة، بينما عند حاجي خليفة "كتاب الحدود والرسوم".

- كتاب في المنطق: في الفلسفة، ويعرف أيضا بالمدخل إلى المنطق.

- كتاب في الحكمة[3].

- مؤلفات الأديب أبي علي القالي: لقد وضع القالي أكثر كتبه بقرطبة بتشجيع من الحكم، يقول ابـن خلكـان: "ودخـل قرطبـة... وأكثـر كتبـه بهـا وضـعها"، وفـي وصـف مؤلفاتـه قـال: "ولـه التواليف الملاح"[4]، أما السيوطي فيقول: "فدخل قرطبة... وقرأ عليه النّاس كتب اللّغة والأخبار وصنّف بها"[5]، ومن أبرز مؤلفاته:

- كتـاب الأمـالي: مؤلـف لغـوي مُتـداول، مـن أمهـات كتـب الأدب العربـي، وأهـم آثـار القـالي العلمية، قال صاحبه بعد خطبة الكتاب: "فإني لَمَّا رأيت العلمَ أَنْفَسَ بضاغة، أيقنت أن طلبه أفضـل تجـارة، ...ثـم أعملـتُ نفسـي فـي جمعـه وشَـغَلْت ذهنـي بحفظـه، حتـى حَوَيْـت خَطِيـره،

وأحـرزت رَفِيعَـه، ورَوَيـت جليلَـه، وعرفـت دقيقَـه، وعَقَلْـتُ شـارده، وقيّـدتُ نـادرَه، وعَلِمـت غامضه، وَوَعَيْت واضحه... "[1].

ووسمه باسم أمير المؤمنين الناصر وابنـه الحكم المستنصر حين قـال: "فَغَبَـرْتُ بُرْهَـةً ألتمس لنشره مَوْضِعاً، ومكَثت دهراً أطلب لإذاعته مكانا، وبَقيتُ مُدّةً أبْتَغي لـه مشرِّفا، وأقمت زمناً أَرْتاد له مُشْتَرِياً...بأن مشرّفَه في عصره أفضلُ مَنْ ملك الورى...عبد الرحمن بن محمد مُحيي المكارم...والمُنيل قبل أن يُستنال الحكم وليّ عهد المسلمين.. "[2].

وقد وضعه بقرطبة حيث قال: "فأمللت هذا الكتاب من حفظي في الأخْمِسة بقُرْطُبة، وفي المسجد الجامع بالزهراء المباركة"[3]، ومحتواه فنون من الأخبار، وضروب من الأشعار، وأنواع من الأمثال، وغرائب من اللغات على حد تعبير صاحبه[4]، وقد أخذه عليه كاملا ثمانية عشر عالما وأديبا أندلسيا أحصاهم محمد مصطفى أبو شوارب بالإعتماد على فهرسة ابن خير في كتابه حول أبي علي القالي[5]، وعن هؤلاء تمت رواية الكتاب في سائر أرجاء الأندلس، وعنهم أخذه جماعة كبيرة يصعب إحصاؤهم.

وعليه، فقد لقي أمالي القالي رواجاً واهتماما كبيراً بالأندلس، وكان له التأثير الواسع في الدراسات اللغوية والأدبية لذلك حرص علماء اللغة الأندلسيون على روايته وتداوله كثيراً، ومن ثمة عكفوا على إنتاج الشروح والحواشي له[6]؛ ولعل أهم تذييل على الأمالي لصاحب المسالك والممالك البكري أبوعبيد عبد الله بن عبد العزيز المتوفى سنة (487هـ/1094م) بكتاب عنوانه التنبيه على أوهام أبي علي في أماليه، وهو الجزء الرابع من كتاب الأمالي المطبوع[7].

- مصنفات أبي اليسر الفرج بن إبراهيم البغدادي:

- الطيب والتطبيب: صنفه هذا الأديب وجعله كالرسالة، ووسمه باسم المقتدر بالله أبي جعفر أحمد بن سليمان بن هود صاحب سرقسطة، وهو مجموع حسن على حد قول ابن الأبار[2].

- مؤلفات الأديب ابن قلاقس أبي الفتوح نصر الله بن عبد الله الإسكندري: ومنها:

- الزهر الباسم في أوصاف أبي القاسم: ألفه بصقلية، لأحد أمرائها، وهو أبو القاسم بن الحجر حين انتسب إليه، وقال ابن خلكان: "أجاد فيه"، وقد نقل عنه العماد في الخريدة[3].

- مؤلفات أبي البركات عبد الرحمن بن داود بن علي الواعظ المصري: ذكر له مؤلف واحد فقط هو " اللآلي المفصلة في الأحاديث المسلسلة"[4]، وهي جمع لأربعين حديث مسلسل، حدث فيها عن ابن بشكوال(ت 578هـ/1183م) ، وابن غالب الشراط وغيرهما من الأندلسيين الذين لم يلقهم ولا أجازوه، أخذها عنه ابن الطَّيلسان وغيره[5].

تلك هي المؤلفات التي وضعها العلماء المشارقة الوافدين إلى بلاد المغارب، ومن خلال عناوين الكتب المتنوعة فإنها شملت مجالات متعددة من العلوم وضروب من الفنون، ومن تلك المؤلفات نهل المغاربة علوم بلاد المشرق حيث تداولوها بالدراسة والرواية لأهميتها، ثم أتبعوها بالذيول والشروح، ومن تلك المُصنفات ما يزال على شكل مخطوط ومنها ما طُبع، ومنها ما هو مفقود ومجهول المصير.

ثانياً : دور العلماء المشارقة القادمين في تنشيط الحركة الفكرية في المغرب الإسلامي

أولا: الامتحان والمناظرات

ثانيا: مجالس الوعظ والذكر

ثالثا: الإجازات العلمية

رابعا: المؤثرات الثقافية المشرقية الوافدة مع العلماء المشارقة إلى بلاد المغارب.

أولا: الامتحان والمناظرة

1- الامتحان: إن الاختبار والامتحان يكون لمعرفة درجة الغريب في العلم، وتحري صدق حديثه، ويكون الامتحان في مجلس السلطان وعن طريق العلماء المحليين، وقد اشتهر أمر الامتحان كثيرا للأشخاص الوافدين خاصة من المشرق، وعلى نتائج ذلك الامتحان تكون مكانة وقدر الوافد في مجلس الحكام وبين العلماء المحليين وكبار رجال الدولة.

ومن دلائل تقديم الوافد للإمتحان وقت وصوله ما يُذكر في كِتَاب الحكم المستنصر الموجه لأحد عماله عن أبي علي القالي: "اقدم بالرجل غير منتقص من تكرمته، فسوف يعليه الاختبار إن شاء الله أو يحطه"[1].

وكذلك قول المنصور بن أبي عامر لأدباء مجلسه وأعيان مملكته لما قَدِم صاعد البغدادي: "هذا الرَّجل الوافِد علينا صاعد يزعُمُ أنّه متقدّم في هذه الآداب التي أنتم سُرُجها الضّاحية وأهِلّتُها السّارية، وأحِبّ أن يُمتَحَن ما عِنْده"[2].

ونلاحظ كيف أن المنصور يُعلي شأن أدباء مملكته ويزيد من حماستهم، ذلك يعني أن الامتحان يكون في البلاط أو أحد قاعات القصر، ويكون ضمن رسميات بحضور الحاكم ويُهيأ لذلك مجلسٌ يُستدعى إليه الوافد وعلماء البيت الملكي وكبار القائمين على شؤون الدولة.

فالامتحان هو مقياس يُقام من أجل تقدير مرتبة العلماء في علمهم ومعرفة صحة قولهم، وقدرتهم على تطبيق ما يحملونه من علوم، وهو أمر مطلوب للوافدين على البلاطات طبعا، فأغلب القادمين لا يُعرف تكوينهم ويُجهل ماضيهم وأخلاقهم وميولاتهم، ولذلك يُمتحنون لتعرف منزلتهم في العلم، وإن نجحوا يكونوا ضمن المُقربين، وتعلو مكانتهم ويتردد ذكرهم، ويشتهر أمرهم وينالوا التشريف والمناصب الرفيعة، وإن فشلوا فإن مصيرهم يكون من المُبعدين المنفيين ويُنسى أمرهم، "وهكذا جرت العادة خصوصاً في حق الغريب المنتسب للعلم"[3].

وربما كان الحُكام المغاربة يحرصون على ذلك كثيراً فليس كل قادم مرحباً به وبما يحمله من علوم، فيُعِدُّون لذلك المجالس، وقد لا يكفي امتحان واحد، فقد امتحن صاعد كثيرا في بلاط المنصور، قال ابن خلكان: "وله أخبار كثيرة في الامتحان"[1].

من المؤكد أن الوافدين من العلماء المشارقة على بلاطات العواصم المغربية كانوا يملكون فكرة مُسبقة عن خضوعهم للامتحان فور وصولهم، ولهم تخمين بأهمية ذلك لارتباط مصيرهم في البلد الوافدين عليه بالامتحان؛ وبخاصة منهم الراغبين في الاستيطان، كما كانوا على دراية بأن البلد بلد علم يحرسه ويحوطه علماء أجلاء؛ فهناك من يُضاهيهم أو يفوقهم منزلة في العلم من علماء المنطقة المحلييّن الذين درس كثير منهم في المشرق أو على أيدي علماء مشارقة تمغربوا، والبلد تحت رعاية حكام وخلفاء يُقدِّرون العلماء ويشاركونهم في العلم أيضا، يقول المقري: "وخواصهم يحفظون من سائر المذاهب ما يُباحثون به بمحاضر ملوكهم من ذوي الهمم في العلوم"[2].

وأغلب موضوعات الامتحان تكون في اللغة والأدب والشعر ارتجالاً [3]، "وقد يقولون للكاتب والنحوي واللغوي فقيه لأنها عندهم أرفع السِّمات"[4]، والامتحان يكون بالمساءلة وتحري مدى صدق الوافد وعقلانية ما يقوله، أو يكون بإعداد المجالس ووضع مشاهدٍ، ومن ثمة يُطلب من الشعراء والأدباء الوافدين وصفها، أو يكون بطلب إملاء كُتب - بالتأليف في موضوعات معينة، وقد نجد امتحاناً بالتناظر- المناظرة- بين العلماء في مجالس سلطانية برعاية الحكام.

في حين بعض الامتحانات تكون عويصة، وكثيرا ما ينزعج منها المُمْتَحن، بخاصة إذا ما تعلق الأمر بمسائل الفقه والدين وأمور المذاهب.

ونستدل على ذلك بقول مشرقي وافد هو تقي الدين محمد بن الشيخ شهاب الدين أبي العباس أحمد بن الغَرْس[5]، الذي التقى بمحمد بن جابر الوادي آشي(ت749هـ/1348م) "وعيّبَ

ما يقع في بعض النقّاد بتونس وما يصدر عنهم بكثرةِ من إلقائهم الأسئلة العويصة في أصول الدين وغيرها على مَنْ يرد عليهم قصدًا في تعجيزه وتعنيته"[1].

كما حثَّ على تبسيط الأمر في الامتحان بدل إيقاع القادم في نوع من الاستفزاز بقوله: "إن من المنقول عن الإمام أبي حنيفة رحمه الله تعالى أن من حُفظت عنه تسع وتسعون خصلة تقتضي الكُفر وواحدة تقتضي الإيمان أن الواحدة المقتضية للإيمان تغلب وتبقي حرمتها عليه"[2].

وبإمكاننا تعميم هذه الظاهرة في أمر الامتحان العويص على كل بلاد المغارب ابتداء من القرن الرابع الهجري/10م، وذلك بعد أن بلغ المغرب الإسلامي درجة رفيعة في شتى فروع العلم، وتفوق كثير من المغاربة على المشارقة في بعض العلوم.

أما عواقب الامتحان أمام السلاطين إن لم تكن إيجابية فقد تؤدي إلى استنقاص مكانته وعدم الالتفات لحديثه وقوله، أو الطرد، حيث يُنْقل عن المنصور قوله عن صاعد البغدادي الوافد على سلطانه: "غداً أمْتَحِنُهُ، فإن فضَحه الامتحان، لم يبقَ في مَوْضِع لي فيه سلطان"[3]، إلا أن هذه أرحم من عقوبات السجن والقتل.

ومن الذين امتحنوا وتعرضوا للسجن والقتل في بلاد المغرب نجد شخصيتين مشرقيتين عالميتين بارزتين، ولكنا لا نعرف شيئا عن مجالس امتحانهما، وهما القادمان أبا بكر بن الأزرق الوافد على العبيديين؛ فقد امتحنه الشيعة وسجنوه، أما الذي أودى الامتحان بحياته من المشارقة ببلاد المغرب فهو أبو البسام موسى بن عبد الله بن الحسين الذي امتحن ببلاد بني حماد وقتل[4].

وقد يؤدي امتحان السلاطين للقادمين عليهم إلى إصابة بعض هؤلاء الواردين بحالة من اليأس والغم فيعودون أدراجهم إلى بلدانهم، كما قد تودي تلك المقابلة بحياة هذا الغريب القادم، مثلما حصل للشاعر ابن زريق البغدادي الوارد على الأندلس الذي هجر وطنه مُعوِّلًا على الإستقرار في الأندلس إلا أن صاحب الأندلس اختبره بالعطاء لكن الشاعر غلبته نفسه فاعتل

ومات حزنا، ويُنْقَلُ عن صاحب الأندلس لما بلغه خبر وفاته قوله: "وددْتُ أن هذا الرجل حيٌّ، وأشاطره نصف ملكي"[1].

وممن امتحن من القادمين على عهد المعزِّ بن باديس أبو الفضل الدارمي البغدادي الوافد على المجلس السلطاني، ويؤكد ذلك المقري حيث يقول: "حضر أبو الفضل الدارمي البغدادي مجلس المعزِّ بن باديس، وبالمجلس ساقٍ وسيم قد مَسَّكَ عذاره وردَ خديه، وعجزت الراح أن تفعل في الندامى فعلَ عينيه، فأمر المعز بوصفه، فقال بديهًا: (الكامل)

ومُعَذَّرٍ نَقْشُ الْجِمَالُ بمسْكهِ * خَدّاً لـه بـدم الْقَلُوْبِ مـضـرّجا

لمّا تيقَّنَ أن سيفَ جفونِـه * من نَرْجسٍ جعل العذار بنفسجا"[2].

ومن أخبار امتحان صاعد من طرف المنصور بن أبي عامر ما قام به هذا الأخير، فقد حَضَّر له مجلساً فيه منظر خِصِّيصا للإمتحان.

يقول ابن بسام: "فلمّا أصبَحَ، وَجّه عنهُ بمجلِسٍ حَفْل، وقد أعَدَّ طبَقاً فيه سقائِفُ من ضرُوبِ النّواوير، وصنع على السّقائفِ جواريَ ياسَمين، وتحتَ السقائفِ بركةُ ماء حصاها اللؤلؤ، وكان في البركَة حَيّةٌ تسبَح، فلما دخَلَ صاعِدٌ مُثِّلَ الطبَقُ بين يديه، فقال لهُ المنصور: إنَّ هذا يومٌ إمّا أن تَسْعَدَ فيهِ مَعَنا، وإمّا بالضِّد عندنا، لأنّه قد زعمَ قومٌ أنَّ كلَّ ما تأتي بِه دعوى، وقد وقعْتُ من ذلك على حقيقة، وهذا طَبَقٌ ما توهّمتُ أنّهُ مُثِّلَ بينَ يَدَيْ مَلِكٍ قَبْلي في شكلِهِ، فَصِفْه بجميع ما فيه"[3].

لقد أعد له المنصور مشهداً معقدا ووضعه تحت الأمر الواقع وطلب منه نظْماً يُوافق المشهد بحضور أعيان الأدب والشعر لِيُعرف مدى قدرته على ارْتجال القول في الشعر وقَرضِه، وأضاف المنصور قائلا: "فإن وصفته بجميع ما فيه علمت صحة ما تذكره"[4].

فقال صاعِدٌ بديهةً: (الطويل)

أبا عامِرٍ هَلْ غيرُ جَدواكَ واكِفُ * وهل غيرُ من عاداك في الأرض خائفُ

يَسوقُ إليكَ الدهـرُ كلَّ عجيبةٍ * وأعجبُ مـا يلقاهُ عنـدَكَ واصِـفُ

وشائعُ نَوْرٍ صاغَها هامِـرُ الحَيـا * عليـها فمِنـها عَبْقَـرٌ ورَفـارِفُ

ولما تَناهَى الحُسنُ فـيها تَقَـابَلَـتْ * عليها بأنواعِ المـلاهي الوصـائـفُ

كأنّما الحاجبُ المنصورُ علّـمـهُ * فِعلَ الجميلِ فطابتْ من أخـلاقُ

من ليس يُقعِدُهُ من سؤددٍ قَــدَمٌ * ولا تَقـومُ لـه في سَــوأةٍ ســاقُ[1].

وعليه، فإن الامتحان يكون اختباراً رسمياً للوافد على بلاط الحكام ويكون بإشراف الحاكم ومن طرف علماء يكونون زملاء محليين، وموضوع الامتحان يكون ضمن العلوم التي يُتقنها هذا القادم.

وعلى الرغم من قلة المادة العلمية في مجالس الامتحانات والتي تركّزت على الأندلس فإنه يتَّضح لنا أن نتيجة الامتحان لا تتوقف على رأي العلماء المغاربة في القادم ولا علم الوافد، وإنما على مدى قدرة هذا القادم على إرضاء السلطان فإن استطاع أن يُثير إعجاب الحاكم بشَخصِه فسوف ينال الرضا والحُظوة وإلا نال السَّخط؛ "فالملوك كانوا يختبرون الواثقين المادحين أمام أبوابهم وفي مجالسهم، بقدر ما كانوا يطربون لسماع مديحهم وتعظيمهم"[2]، كما قد تُؤَثر زمن وظروف الوفادة على نتائج الامتحان.

2- المناظرة: إن المناظرات فرصة يتمكن من خلالها العلماء من تبادل الآراء والنقاش حول أفكار مُعيّنة في أصناف مختلفة من العلوم[3].

وتكون المناظرات إما في مجالس السلاطين، وذلك غالبا ما يكون نوع من الامتحان أيضا تم الاستعداد له وتحيين موعده؛ وإما في مجالس العلماء، وأغلب المناظرات تحصل بين العلماء في مجالس الحُكام، إلا أن هناك ما قد يحصل بين عالم وافد وسلطان حاكم عالم فيُناظرون الملوك مثلما حدث لصاعد مع المنصور، يشير إلى ذلك الحميدي في جلسة علمية ونقاش دار حول اتقان صاعد لعلم النحو من عدمه، حيث تصدَّى المنصور لعلماء اللغة الأندلسيين في مجلسه بقوله: "أنا أناظره"[4].

أ- في مجالس السلاطين: لقد عمل ملوك المغرب الإسلامي على إحياء مجالسهم بالمناظرات، فكان العلماء يجلسون ويتناظرون أمام الحكام[5].

ومن الوافدين الذين نوظر عليهم في المغرب وبالضبط في إفريقية الرحالة الشيخ أبو العباس الجدلي الشريف في بلاط المستنصر بالله الحفصي.

فقد سأله المستنصر عن البلاد التي دخلها وعن الغرائب التي اطلع عليها؛ فذكر له ما حضره، يقول الغبريني: "ومن جملة ما ذكر أنه رأى في بلاد الهند صبغة إذا خضب بها الخاضب يقيم ثلاثين سنة لا يفتقر إلى خضاب"[1].

وكان من جملة الحاضرين بالمجلس أبو الحسن المروزي من فضلاء الأطباء، فأنكر هذه القضية، كما أنكرها الخليفة.

ويُعلِّق صاحب عنوان الدراية على ذلك فيقول: "وهي بواجب أن تنكر، لأنّ هذا ما يمنع النمو ويحيل الطبيعة...، فكأنه سقط من عين الخليفة بهذه الحكاية، ولكن ذكر لي أن المجلس انفصل على وقوع النظر في القضية، وعلى أن يكتب فيها كل من له علم بما يظهر له وأن مُدَّعيها كتب فيها كتاباً"[2].

ثانيا: مجالس الوعظ والذكر: من ضمن الأمور المُهمة في هذه الدراسة تَتَبُّع تأثير المشارقة في أوساط المجتمع والعامة في بلاد المغارب، والمُندرجة في إطار تنشيط الحركة الفكرية من طرف المشارقة الوافدين على المنطقة.

والمعروف أنَّ للعَالِم نفوذاً لدى عامة الناس حيث "إذا وعظ أو تكلم كان له التأثير السحري على الناس فقد يُبكيهم أو يضحكهم"[1]، فالعامة تثق في العلماء.

من خلال تتبعنا لتراجم القادمين فيما يتعلق بالذكر والوعظ، سجلنا أربعة أعلام، اقتصر نشاط الأول في بلاد المغرب، والثلاثة الباقين في العدوتين المغربية والأندلسية.

فالمجالس الأولى في المغرب تعود لأبي زكريا المرجاني الذي أشار إليه الغبريني ويُفهم من حيث الوصف أنه مجلس ذكر[2]، والثاني لأبي زكريا يحيى بن عبد الرحمن بن عبد المنعم القيسي وقد أشار إليه ابن الزبير وابن الأبار والمقري[3]، والثالث لأبي البركات عبد الرحمن بن علي الواعظ[4]، والرابع لأبي بكر محمد بن عبد الوهاب الأنصاري الدمشقي الواعظ وقد ذكره ابن الزبير[5]، والملاحظ ارتباط أسمائهم بالوعظ، ويؤكد ذلك إضافة صفة "الواعظ" إليهم.

- مؤهلات المشارقة الوعاظ: نستنتج ذلك من خلال النصوص المُقدمة، والتي تخص الشخصيات التي مارست الوعظ ببلاد المغارب، وأول العوامل المساعدة أن هؤلاء الواعظين قادمون من بلاد المشرق مما يَلْقى فضولاً وإقبالا كبيرا في الوسط القادمين عليه - أي بلاد المغارب، فالواعظ أياً كان يجب أن تتوفر في شخصه شروط، وعلى رأسها العلم فيجب أن يكون عالماً بالقرآن والسنة والفقه والتفسير، ومشاركاً في اللغة والأدب وحفظ الشعر وغيرها من العلوم.

ومِمَّا يزيد من قوة شخصية الواعظ تلك الهيبة والوقار اللتين تحيطان بشخصه، مثل قول ابن الزبير في وصف أبي زكريا يحيى بن عبد الرحمن القيسي الواعظ: "وكان شديداً على أهل

الأهواء والبدع، محبا في أهل السنة والورع، منقطع القرين في الفضل والخير والدين، لا تأخذه في الله لومة لائم"[1].

ويضيف المقري: "وكان فقيهاً على مذهب الشافعي، عارفاً بالأصول والتصوف، زاهداً، ورعاً، كثير المعروف والصدّقة، يعظ الناس، ويسمع الحديث"[2].

وكذلك في وصف القادم أبي بكر محمد بن عبد الوهاب الأنصاري الدمشقي الواعظ، حيث يذكر أنه "كان حافظا...حاضر الذكر لذلك، نبيل المنزع في وعظه"[3].

إضافة إلى الزهد وصلاح النفس، فالغبريني لمَّا يُقدِّم أبا زكريا المرجاني يقول: "ومنهم الشيخ الفقيه الصالح العابد الزاهد الورع الناسك المكاشف أبو زكريا المرجاني الموصلي أحد الأتقياء الأبرار ممن اختصه الله بخالصة ذكرى الدار... "[4].

تلك إذن، مؤهلات شخصية الواعظ، والملاحظ أنه لا يهم المذهب ما دامت المصادر التشريعية للدين الإسلامي واحدة، وما دام الناس بحاجة إلى سماع الوعظ والتذكير.

- **مكان عقد مجالس الوعظ:** غالبا ما يكون مكان انعقادها في المساجد بين عامة الناس، ومن المساجد التي عقدت فيها مجالس الذكر والوعظ لمشارقة وافدين، نذكر مسجد المرجاني ببجاية والذي نُسب إلى القادم نفسه أبي زكريا المرجاني الموصلي لشدة ارتباطه بالوعظ فيه، حيث يقول الغبريني: "كان مسجده الذي يجتمع فيه إليه المسجد المشهور الآن به بحومة اللؤلؤة، وهو المعروف الآن بمسجد المرجاني"[5].

وكذلك الأمر في الأندلس حيث يذكر ابن الأبار: "وسمعت وعظه – يقصد أبا البركات عبد الرحمن بن داود بن علي الواعظ - إذ ذاك بالمسجد الجامع من بلنسية"[6] ذلك أن الوعظ غالبا ما يوجه للعامة.

- **هل الوعظ حرفة؟** إن البحث في ممارسة العلماء المشارقة للوعظ في بلاد المغارب يؤدي بنا إلى إثارة إشكالية تدور حول إن كان الوعظ حرفة لهؤلاء المشارقة القادمين؟.

في الأندلس، تصدَّر للوعظ يحيى بن عبد الرحمن بن عبد المنعم القيسي الذي كان يعظ الناس[1] بعد قدومه، يذكر ابن الأبار: "وقصد المغرب بعد أداء الفريضة فلقي ببجاية أبا محمد عبد الحق الإشبيلي، وأجازه وحَضَّه على الوعظ والتذكير، فامتثل لذلك، ودخل الأندلس"[2].

يعني أن عبد الحق الإشبيلي هو الذي حفَّزه على الوعظ والتذكير بعدما لقيه مما يدلُّ على أن الوعظ لم يكن حرفته التي يتكسَّب بها، بل إن الإشبيلي هو الذي لاحظ قدرته على ذلك، وهذا تصور مبدئي يلحظه قارئ نص ابن الأبار.

ولكن بالعودة إلى نص ابن الزبير الذي يشير إلى أن الوعظ قد رافقه منذ خروجه من بلاده، "واشتغل بالوعظ حين صدر من بلاده إلى أن وصل الأندلس ووعظ بها"[3].

إن كان ما ذهب إليه ابن الزبير صحيح فمعنى ذلك أن الوعظ كان حرفة يرتزق بها القادم، وقولنا هذا لا يُبنى على كلمة "اشتغل" الواردة في نص المصدر، وإنما من السياق العام "منذ صدوره من بلاده" بينما القول الأول لابن الأبار يدل على أن احترافه هو إيعاز من مغربي.

ويثير ابن الزبير هذا الأمر في ذكره للواعظ أبي بكر محمد بن عبد الوهاب الأنصاري في قوله: "وآخر ما لقيته بسبتة، وكان مستحسن المنزع- رحمه الله، لولا حرص كان فيه، وفي باب التكسب بتحرفه الوعظي، نفر عنه بعض أصحابنا بسبب ذلك"[4]، وهذه نعتبرها إشارة مباشرة لامتهانه الوعظ كحرفة من خلال هذا الوصف.

إضافة إلى ذلك نجد الإشارة إلى الواعظ أبي زكريا يحيى بن عبد الرحمن: "ثم زال عن الوعظ والتزم داره، وما يقيم به قوته إلى أن توفي بحضرة غرناطة"[5] أي كان الوعظ حرفته أيضاً.

في حين أننا لم نستطع التوصل إلى إشارة في نص الغبريني المقدم حول مجلس ذكر أبي زكريا المرجاني الموصلي[6]، إذ يفهم أنه كان متصوفا سائحا زاهدا يُذكِّر الناس دون منفعة دنيوية.

ويبدو أن الوعظ كان موجهاً لكل الطبقات؛ فقد حضر العلماء أيضا مجالس الوعظ كحضور ابن الأبار مجلس أبي زكريا يحيى بن عبد الرحمن القيسي مع عامة الناس بالأندلس[2].

- مدى انتشار مجالس الوعظ: كانت مجالس الوعظ التي عقدت من طرف المشارقة في بلاد المغارب تقام في مساجد وجوامع المدن المغربية والأندلسية، فعلى غرار بجاية التي شهدت مجالس الواعظ أبي زكريا المرجاني، فقد حل بمدينة غرناطة أبو زكريا يحيى بن عبد الرحمن القيسي حيث استوطنها كما ذكر المقري[3]، وعقد مجالس وعظه بها، وبمرسية نزل الواعظ أبو بكر محمد بن عبد الوهاب الدمشقي[4]، ووعظ بها أيضا.

أما أبو البركات عبد الرحمن بن داود بن علي الواعظ فكان من الوعاظ المتجولين بين عدة مدن أندلسية واعظاً ومذكراً، وسُمِعَ منه باشبيلية وقرطبة ومرسية وبلنسية، وفي هذه الأخيرة شهد ابن الأبار مجلس وعظه[5].

- مدى تأثير الوعاظ في الناس: إن للوعاظ تأثير كبير في نفوس الناس عامة، فالواعظ ينصحهم ويخوفهم من الانزلاق في مهاوي الظلم والفساد، فهو يساعد على إعادة الأمن بحث الناس على الالتزام بالشرع، وهم في كل ذلك يتدارسون أحوال المجتمع والأمة، فهدف الوعظ هو إصلاح أحوال العامة.

وعن مدى تأثير مجلس ذكر أبي زكريا المرجاني الموصلي ببجاية يقول صاحب عنوان الدراية: "واتصل حال المنفعة به إلى أن أراد الله سفره، فرجع إلى بلاده"[6]، وعلى ما يبدو أن هذا المجلس كان حافل الذكر لذلك كان تأثيره واضحا على حد قول الغبريني.

أما عن تأثير مجلس أبي زكريا يحيى بن عبد الرحمن بن عبد المنعم القيسي الواعظ: يذكر ابن الزبير"ووعظ بها وتاب على يديه جملة كبيرة من المسرفين المذنبين، ورجعوا إلى الله رجوع الخائفين، وكان وعظه يأخذ بمجامع القلوب"[7].

لم تكن مجالس الذكر التي عقدها المشارقة في بلاد المغرب واضحة الدلالة مثل الأندلس، ويعود ذلك إلى احتفاظ المصادر الأندلسية بمادة حول تلك المجالس في تراجم هؤلاء الوافدين الغرباء الذين كان أغلب مؤلفي كتب التراجم الأندلسية قد التقوا بهم، وأخذوا عنهم وسمعوا وعظهم.

ومما يلاحظ على فترة قدوم هؤلاء الواعظين من المشرق واجتماعهم كلهم في القرن السابع الهجري/13م، ذلك القرن الذي شهد فيه العالم الإسلامي- مشرقا ومغربا- ضعفا كبيراً، فقد انقسم الأيوبيون وتنازعوا، وضعف البيت العباسي، وزاد الأمة بلاء ظهور التتار، كما انهزم الموحدون في العقاب غربا.

إن هؤلاء الوعاظ كانوا يقومون بمحاولة إصلاح حال الأمة بالتذكير بسيَّر الأولين، وأخذ العظات والعبر والعودة إلى النهج الصحيح عن طريق مجالس يُقيمونها في مساجد وجوامع بلدان المشرق والمغرب.

ثالثا: الإجازات العلمية: يعتبر منح الإجازة العلمية من طرف العلماء المشارقة لإخوانهم المغاربة في بلاد المغرب من الأمور المهمة التي تدل على التوافد العلمي المشرقي ونشاطه، وقد اشترك المشارقة القادمين عُلماء وتجارا وغيرهم في تقديم الإجازة لطالبيها من المغاربة، وارتبطت الإجازة هنا بعلم الحديث فقط.

كان المغاربة يحرصون على نيل الإجازة من الوافدين عليهم، ومن المشارقة القادمين الذين ثبت أنهم أجازوا علماء الأندلس عَالِم الحديث الذي وُصف بسعة الرواية أبو سالم مُحَمَّد بن سُلَيْمَان الحرَّاني الظاهري الذي كان قد وفد على الأندلس تاجراً وأجاز ابن خَزْرج، قال ابن خَزْرج: "وأجاز لي روايته في شعبان سنة ثلاثٍ وعشرين وأربعمائة، وهو يومئذٍ ابن أربعٍ وسبعين عاماً"[1]، كما أجازه أيضا الوافد المحدث أبو عبد الله محمد بن سَعِيد الكِلاَبي المدني الشافعي، الذي وُصِف بالثقة، وكان منحه الإجازة سنة 432هـ/1040م[2].

ومن القادمين على المغرب والأندلس مِمَّن أجاز القاضي عياض التاجر أبو نصر سهل بن علي النيسابوري الشافعي، حيث قال عياض: "وأجاز لي جميع رواياته"[3].

وممَّن أجاز ابن الأبار أيضا أبو البركات مودود بن عمر الفارسي السلماسي، قال ابن الأبار: "وكانت له رواية في المشرق، وأجاز لي جميع ما رواه ولم يُسمِّ أحداً من شيوخه في سنة إحدى وثلاثين وستمائة"[4] أي 1136م.

وأضاف ابن الزبير: "ذكره الشيخ في الذيل، وقال: أجاز لي، ووصفه بالانقباض، وكرم النفس، وذكره القاضي أبو عبد الله ابن عياض وسماه لي، وقال الصوفي المحقّق، وسمع عليه صحيح البخاري، وذكره الأستاذ الورع الزاهد أبو بكر حميد فيمن أخذ عنه، وسمع منه"[5].

وعن إجازات المشرقي الوافد السنهوري أبي إسحاق إبراهيم بن خلف بالمغرب، فقد نقل ابن الأبار "قال أبو سليمان بن حَوْط الله: أجازني وابني محمداً جميعَ ما رواه عن شيوخه الذين منهم أبو الفخر فنا خُسْر بن فيروز الشيرازي، وذكر أن روايته بنزول، لأنّه لم يرحل إلّا بعد وفاة الشيوخ المشاهير بهذا الشأن"[6].

كما وهب السنهوري الإجازة لأبي الحسن ابن القطان[1] أيضا، يقول ابن الأبار: "وقال أبو الحسن ابن القطان، وسمّاه في شيوخه: قدم علينا تونس سنة اثنتين وستمائة، واستجزته لابني حسن فأجازه وإياي...، وقد كان إذْ أجاز ابني كتب بخطّه جملة من أسانيده، وسمى كتباً منها الموطأ والصحيحان وغير ذلك"[2].

وممن أجاز لابن الزبير أبو بكر محمد بن عبد الوهاب الأنصاري الدمشقي حيث يذكر ابن الزبير: "كتب لي بالإجازة مرتين: بمرسية، وغرناطة، وذكره الشيخ في الذيل، وأخذ عنه"[3].

تلك هي الإشارات القليلة التي وردت في مادة النصوص التراجمية عن إجازات العلماء المشارقة لزملائهم المغاربة، ومن الملاحظات التي تُسجَل حول هذه الإجازات:

- أن رواية الإجازة كانت عن جلة من شيوخ المشرق، بواسطة هذا الوافد يصبح المغربي المُجاز له يروي عن شيوخ مشارقة لم يرهم ولم يتطلع لمؤلفاتهم، بل سمع عنهم عن طريق السند، وقد تُذكر تلك المؤلفات في الإجازة، وكل الأمثلة التي ذكرناها عن الإجازات كانت دون تسمية الشيوخ الذين أُخِذَ عنهم بإستثناء واحدة.
- كان المغاربة يغتنمون فرصة تواجد العلماء المشارقة في بلدانهم فيطلبون الإجازة لأنفسهم ولأفراد أسرهم.
- قد يأخذ العالم المغربي عدة إجازات من شيوخ مشارقة قادمين، كما قد يحصل المغربي على أكثر من إجازة من نفس العالم المشرقي القادم.

وكانت الإجازة تلغى إذ صدر من العالم المشرقي المُجيز فِعلا يُشكك فيه مثلما حصل لأبي الحسن القطان مع أبي إسحاق المعروف بالسنهوري حيث يقول ابن الأبار: "وقدم علينا بعد ذلك مراكش مُفْلتاً من الأسر فظهر في حديثه عن نفسه تجازف واضطراب وكَذِبٌ زهَّد فيه...، قال: وقد تبرأت من عُهْدة جميعه لما أثبتُّ من حاله"[4].

كما لم يكن تقديم الإجازة من الوافد المشرقي للمغاربة فقط، بل حصل تبادل للإجازات على أرض المغارب؛ فقد كان العلماء المشارقة أيضا يطلبون إجازات علماء المغاربة، بخاصة الذين قدموا منهم لطلب العلم.

ومثال ذلك أبا عبد الله محمد بن محمد بن عبد الرحمن القيسي الذي أُجِيزَ في بلاد المغرب، يذكر ابن الأبار: "وأجاز له أبو محمد التادلي[1] روايته عن أبي محمد بن عتاب وأبي بحر الأسدي[2]، ويروي عن ابن رشد في آخرين"[3].

كما قدَّم المغربي أبو محمد عبد الحق الإشبيلي الإجازة للوافد على المغرب أبي زكريا يحيى بن عبد الرحمن الأصبهاني بعد لقائهما بمدينة بجاية، قال ابن الأبار: "وقصد المغرب بعد أداء الفريضة فلقي ببجاية أبا محمد عبد الحق الإشبيلي وأجازه"[4].

إن الإشارات المُقتضبة عن الإجازات العلمية التي منحها العلماء المشارقة الوافدون على بلاد المغارب يبدو أنها كانت أكثر من تلك الأمثلة المقدمة خاصة إذا ربطنا ذلك بعدد القادمين وبالأخص علماء الحديث، ولكن قلة المادة التي تحصلنا عليها والتي تقترن بأعلام الدراسة كانت وراء النظرة السريعة حول الموضوع، ولعل توافد هؤلاء المشارقة وتبادل الإجازات أدى لعزوف كثير من علماء المغرب والأندلس عن الرحلة إلى المشرق بعد اللقاء على أرض المغارب وتبادل الإجازات.

- **فيما يتعلق بالمظاهر الاجتماعية:** أي العادات الاجتماعية ومظاهر الحياة اليومية من طريقة لباس وتسريح الشعر والطهي، وجميع ما يتعلق بالحياة اليومية للناس.

- في اللباس: يعود لزرياب الفضل في تعليم أهل الأندلس طريقة التنويع في اللباس، وهي ارتداء الملابس المختلفة لتناسب الحالات والفصول المختلفة، فلكل فصل لباس خاص به[1].

قال المقري: "ولبسه كل صنف من الثياب في زمانه الذي يليق به، فإنّه رأى أن يكون ابتداء الناس للباس البياض وخلعهم للملون من يوم مهرجان أهل البلد المسمى عندهم بالعنصرة الكائن في ست بقين من شهر يونيه الشمسي من شهورهم الرومية، فيلبسونه على أول شهر أكتوبر الشمسي منها ثلاثة أشهر متوالية، ويلبسون بقية السنة الثياب الملونة، ورأى أن يلبسوا في الفصل الذي بين الحر والبرد المسمى عندهم الربيع من مصبغهم ثياب الحر والملحم والمحرر والدَّرَاريع التي لا بطائن لها لقربها من لطف ثياب البياض الظهائر التي ينتقلون إليها لخفتها وشبهها بالمحاشي، ثياب العامة، وكذا رأوا أن يلبسوا في آخر الصيف وعند أول الخريف المحاشي المروية والثياب المصمتة وما شاكلها من خفائف الثياب الملونة ذوات الحشو والبطائن الكثيفة، وذلك عند قرس البرد في الغدوات، إلى أن يقوى البرد فينتقلوا إلى أثخن منها من الملونات، ويستظهرون من تحتها إذا احتاجوا إلى صنوف الفراء"[2].

وعليه، فقد علَّمَ زرياب أهل الأندلس ارتداء الصوف في الشتاء، والقطن والملابس البيضاء في الصيف، والملابس الزاهية والحريرية في الربيع، كما نَقل إليهم التأنق في الملبس[3] لأنه كان فيصل الأناقة ومُصمماً للأزياء، وكتب الأشعار على ملابس المغنيات، وبذلك ساهم في ازدهار صناعة الملابس[4] بالأندلس.

- تسريح الشعر: علم زرياب الأندلسيين فن تزيين وتصفيف الشعر بعد قصه بدلاً من إرساله طويلاً، وفرقه في مقدّم الرأس، فمن ذلك ما رواه المقري من استحسان الناس لطريقة زرياب

ولده في تحذيف شعورهم واتباعهم فيه[1]، يقول صاحب النفح: "فمن ذلك أنّه دخل إلى الأندلس وجميع من فيها من رجل وامرأة يرسل جُمتَّه مفروقاً وسط الجبين عاما للصدغين والحاجبين، فلمّا عاين ذوو التحصيل تحذيفه هو وولده ونساؤه لشعورهم، وتقصيرها دون جباههم، وتسويتها مع حواجبهم، وتدويرها إلى آذانهم، وإسدالها إلى أصداغهم هوت إليه أفئدتهم واستحسنوه"[2].

- النظام الغذائي والطبيخ: قبل تخصيص الحديث عما أضافه زرياب في هذه النقطة تجدر الإشارة إلى عالم مشرقي وافد قبل زرياب هو الإمام المحدث معاوية بن صالح الحضرمي الذي حمل معه إلى الأندلس نوعاً من الثمار وهو الرمان السفري، قال الخشني: "ثم لما صار معاوية بن صالح إلى الأمير عبد الرحمن أدخل إليه تحف أهل الشام، وكان في تلك التحف من الرمان المعروف اليوم بالرمان السفري، فجعل جلساء الأمير من أهل الشام يذكرون الشام، ويتأسفون عليها، وكان فيهم رجل يسمى سفر، فأخذ من ذلك الرمان شيئاً لطف به، وغرسه حتى علق ونما وأثمر، فهو اليوم الرمان السفري، نسب إليه"[3] وقد انتقل إلى العدوة المغربية.

ومن العادات الغذائية والمؤثرات المشرقية التي أدخلها زرياب إلى المطبخ الأندلسي أصنافاً غير معهودة من الطبيخ والحلوى والثمار[4] حيث ساهم في تطور وتنوع المائدة الأندلسية.

- تعديل النظام الغذائي: أو ما يعرف "بالمائدة الزريابية" حيث وضع نظاماً غذائياً للقصر يتكون من الحساء أولاً، فالسمك أو الدجاج أو اللحم، فالفواكه والحلويات والمكسرات، وقد انتشرت هذه الوصفة[5] كثيراً.

- إدخاله لأصناف غير معهودة من الأكل من الثمار: مثل الإسفراج[1] حيث يعتبر زرياب أوّل من اجتنى بقلة الهليون المسماة بلسانهم الإسفراج، ولم يكن أهل الأندلس يعرفونها قبله[2].

وصنعة بقلة الهليون على حسب ما ورد في كتاب الطبيخ: "يؤخذ اللحم ويقطع على تقدير ثلاثة أصابع، ويغسل، ويجعل في قدر، ويلقى عليه مغرفة زيت ومغرفة ونصف مرى وكزبر يابس وحفنة حمص مبلول وبصلة مقطعة، ويرفع على النار، ويؤخذ الهليون فيقطع صغاراً، ويسلق ويلقى في القدر مع اللحم، فإذا نضج اللحم مع الهليون يؤخذ لباب الخبز وبيضتان وفلفل، ويخمر بذلك القدر، ويترك على الرضف ساعة"[3].

- الطبيخ: أدخل زرياب تعديلات على المطبخ الأندلسي، وكثيراً من الأصناف والخضروات[4]، وممّا اخترعه من الطبيخ اللون المسمى بالتفايا، وهو مصطنع بماء الكزبرة الرطبة محلى بالسنبوسق والكباب، ويليه لون التقلية المنسوبة إلى زرياب[5].

والتفايا عدها صاحب كتاب الطبيخ من بسائط الأطعمة، وهي أنواع منها التفايا البيضاء، وتحضر من لحم الضأن الفتي السمين في قطع صغار، ويضاف إليها ملح وفلفل وكزبرة يابسة ويسير من ماء بصلة مدقوقة ومغرفة من الزيت العذب وماء وتجعل على نار لينة وتحرك، ويجعل فيها بندق ولوز مقشر مقسوم، فإذا أردتها خضراء أضفت إليها ماء الكزبرة الرطبة، ومنها تفايا مبيضة، وأخرى مقلية، وأنواع منها مشرقية[6].

ويسميها صاحب مؤلف الطبيخ صنعة بقلية لزرياب، ويقول في وصفتها: "يؤخذ من لحم كبش فتي سمين، ويجعل في قدر بملح وبصلة وكزبرة يابسة وفلفل وكراويا، ومغرفتين من الزيت ومغرفة من المرى النقيع، ويرفع على نار معتدلة، ثم يؤخذ من الكرنب عيون الرخصة، وتنقى من ورقة وتقطع من الرؤوس منها صغاراً، ويغسل، فإذا همّ اللحم أن ينضج جعل عليه الكرنب، ثم يدق لحم أحمر من بضعة الرخصة، ويضرب في صفحة مع بيض

ولباب خبز ولوز وفلفل وكزبرة وكراويا، ويخمر به القدر قليلا قليلا، ويترك على الرضف حتى يجف مرق، ويعلوا دسمه، ويقدم"[1].

- الحلويات: ابتكر زرياب قائمة طويلة من الحلويات الشرقية كالهندباء والكمأة، وقيل إليه تنسب "الزلابيا" تحريفاً لاسمه[2].

- **أساليب حضارية:** نقل زرياب إلى الأندلس الكثير من أساليب الحضارة التي عرفها المشرق، وكانت مجهولة من أهل الأندلس[3] من عادات وتقاليد اجتماعية وتدابير منزلية.

- تنظيف الملابس: من التدابير المنزلية التي أدخلها زرياب استخدام الملح لتنظيف الثياب من الدسم، فقد ورد في كتاب نفح الطيب: "فكانوا لا تسلم ثيابهم من وَضَر، فدلهم على تصعيدها بالملح، وتبييض لونها، فلمّا جربوه أحمدوه جِدًّا"[4].

- الطيب والعطور: أدخل زرياب أيضا أصنافاً غير معهودة من الطيب، فقد تعلموا عنه استخدام مادة "المرتك" كمزيل للعرق بدلاً من زهر الريحان[5]، يقول المقري: "وممّا سنّه لهم استعمال المرتك المتخذ من المرداسنج لطرد ريح الصنان من مغابنهم، ولا شيء يقوم مقامه، وكانت ملوك الأندلس تستعمل قبله ذرور الورد وزهر الريحان وما شاكل ذلك من ذوات القبض والبرد"[6]، كما أدخل العطور والحمامات العامة التي حملت اسمه[7].

- الأواني وسفرة المائدة: علم زرياب الأندلسيين الأكل على الموائد، وفن إعدادها وتزيينها وأدابها، واستعمال الآنية الزجاجية للشراب على الموائد بدلاً من الآنية المعدنية[8]، يقول

المقري: "ومما أخذه عنه الناس بالأندلس تفضيله آنية الزجاج الرفيع على آنية الذهب والفضّة"[1]، فازدهرت صناعة الزجاج[2] بالأندلس.

وكذلك قوله: "واختياره سُفر الأديم لتقديم الطعام فيها على الموائد الخشبية إذ الوضر يزول عن الأديم بأقل مسحَة"، حيث آثر فرش أنطاع الأديم اللينة الناعمة على ملاحف الكتان[3].

ارتكزت دراسة هذا العنصر على زرياب كشخصية محورية فقد ساهم في نقل المؤثرات الثقافية من المشرق إلى الأندلس، ولذلك اعترف المؤرخون المغاربة بدوره الحضاري من أمثال المقري، وكثير من الباحثين المُحْدثين المشارقة ومنهم المؤرخ حسين مؤنس الذي قال عنه: "وساعد في نقله - يقصد المجتمع الأندلسي- من البداوة إلى الحضارة ومن الفوضى إلى التنظيم المتحضر"[4].

لقد بالغ حسين مؤنس في هذا القول لما وصف المجتمع الأندلسي بالجهل والفوضى، ولا نوافق ما ذهب إليه، فالأندلس أبدا لم تكن بعيدة عن الحضارة منذ بداية الحكم الأموي على أراضيها، يقول إبراهيم حركات: "المشرق لم يعط كل شيء للأندلس، فهذا القطر نجح في خلق ذاتيته فكرياً كما نجح في ذلك سياسياً واجتماعياً واقتصادياً"[5].

فانتقال الثقافة في المجتمعات لا تعني بالضرورة الانتقال دوما من الحضاري إلى ما دُونِه أي أقل منه حضارة؛ فالمجتمع الأندلسي لم يكن أقل تَحضُرا من المجتمع المشرقي، ولم يكن ينتظر وصول بوادر الثقافة والحضارة من الشرق حتى يتحضر.

وحتى وإن كانت تبدو تلك مناقضة لما نصبو إليه ولكنها كلمة تقال دفاعا عن الأندلس- على أننا لا ننكر أبدا فضل المشرق على المغرب، ولا ننكر فضل هؤلاء الوافدين من العلماء المشارقة في نقل العلوم والمعارف إلى المغرب والذين خصصنا لهم هذه الدراسة، وسعينا لإبراز دورهم في دفع الحركة الفكرية في بلاد المغرب، فإننا نؤكد أن الأندلس قد قطعت شوطا كبيرا في مظاهر الأبهة الحضارية، كما أن كل شيء وارد مع العلماء أو غيرهم من القادمين إلى الأندلس بداية من العهد الأموي كان مراقبا من طرف السلطة والمجتمع "إلى

درجة أن يحكم بسهولة في تنحية الأفكار والنظريات المناهضة للسنة والواردة من الخارج"[1]، فقد كانوا يسمحون فقط بانتشار العلوم والإضافات الثقافية المرغوب فيها.

كان غرضنا مما سبق أن نتدارس من منظور تاريخي مسألة إسهام العلماء المشارقة في تنشيط الحركة الفكرية في بلاد المغارب من خلال نقاط معينة، وتِبيان مدى التأثير الثقافي والفكري الذي تركه الوافدون في ذهنية المغاربة وواقعهم الملموس، وكذا التفاعل الحضاري الذي حصل بوجود المشارقة في بلاد المغارب، وهذا حق لا ينكره إلا جاحد.